

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُحْتَرَمُونَ،

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكِرَامَ،

إِنَّ الْعِرْقَ نَوْعٌ مِنْ إِظْهَارِ جُنَاحِ الْكِبْرِ الَّذِي جَعَلَ إِبْلِيسَ يَعْصِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فَكَمَا تَوَهَّمُ إِبْلِيسُ أَفْضَلِيَّتَهُ بِسَبَبِ خَلْقِهِ مِنْ نَارٍ وَجَعَلَهُ وَسِيلَةً لِعِصْيَانِهِ، فَكَذَلِكَ حَالُ الَّذِي يَتَوَهَّمُ أَفْضَلِيَّتَهُ بِالْعِرْقِ. فَإِنَّهُ - كَمَا تَقَدَّمْنَا فِي أَوَّلِ الْخُطْبَةِ - لَا تَتَكَوَّنُ أَوْصَافُنَا الَّتِي نُولَدُ بِهَا إِلَّا بِإِرَادَةِ الْخَالِقِ تَعَالَى وَتَقْدِيرِهِ.

إِخْوَتِي الْقِيَمُونَ،

أَنْظُرُوا مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا، إِنْ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ. وَإِنْ آبَاكُمْ وَاحِدٌ. أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ. أَلَا، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى

أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى»² وَنَحْنُ أُمَّةٌ نَبِيٌّ أُرْسِلَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَلَمْ يُرْسَلْ إِلَى قَوْمٍ مُعَيَّنٍ، بَلْ إِلَى النَّاسِ وَالْجِنِّ أَجْمَعِينَ بِلَا تَفْرِيقٍ بَيْنَهُمْ. فَنَحْنُ - كَأُمَّتِهِ - أَوْلَى أَنْ لَا نَدْعِيَ الْأَفْضَلِيَّةَ بِنَاءً عَلَى الْعِرْقِ. وَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا أَمَثَالًا لَافْتَةٍ فِي التَّارِيخِ الْقَرِيبِ لِلِكُورِثِ الَّتِي قَدْ نُودِّيَ إِلَيْهَا الْعُنْصُرِيَّةُ الَّتِي أَصْبَحَتْ ظَاهِرَةً مُهَدَّدَةً لِسَكِينَةِ النَّاسِ وَمُسْتَقْبَلِ الْمُجْتَمَعِ فِي أَيَّامِنَا تِلْكَ. وَنَحْنُ كَأَقْلِيَّةٍ فِي الْمُجْتَمَعِ الْأَوْرُوبِيِّ كَثِيرًا مَا نُصْبِحُ هَدَفًا لِمُعَادَاةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ نَتِيجَةٌ مِنْ نَتَائِجِ الْعُنْصُرِيَّةِ، فَكَتَرَبُ بِذَلِكَ. وَلِهَذَا السَّبَبِ لَا يَبْغِي لَنَا أَنْ نَفْعَ فِي نَفْسِ الْخَطِيئِ فَنُعَادِي وَنُؤَدِّي آخِرِينَ لِاخْتِلَافِ دِينِهِمْ أَوْ عِرْقِهِمْ.

فَلَنَكُنْ بَعِيدًا عَنِ الْعُنْصُرِيَّةِ وَلَنَقُمْ ضِدَّهَا دَائِمًا لِنَكُونَ قُدُواتٍ لِلْمُجْتَمَعِ.

نَحْنُ كَمَخْلُوقِينَ نَقَرُّرُ بَعْضَ الْأُمُورِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِإِرَادَتِنَا نَحْنُ، وَتَرْجِيحَاتِنَا نَحْنُ. نَخْتَارُ مَثَلًا تَدْرِيْبَ الْمِهْنَةِ الَّتِي نُرِيدُ أَنْ نُمَاهِنَهَا، أَوْ مَاذَا نَأْكُلُ مِنَ الطَّعَامِ عَلَى الْمَائِدَةِ، أَوْ قِصَّةَ شَعْرِنَا، أَوْ أَيْنَ نُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي نَتَوَاجَدُ فِيهَا الْآنَ، ثُمَّ نَعْمَلُ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارَاتِنَا. وَمَعَ ذَلِكَ يُوجَدُ بَعْضُ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَأْثِيرَ لَنَا فِيهَا كَعِبَادَةِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا دَخَلَ لَنَا فِيهَا: وَلَادَتُنَا كَذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، أَوْ كَأَسْوَدَ أَوْ أَبْيَضَ، كَمَا لَا نَقَرُّرُ مَكَانَ وَلَادَتِنَا وَلَا عَائِلَاتِنَا بِإِرَادَتِنَا. فَإِنَّهُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَتَمَدَّحَ الْإِنْسَانُ بِمَا لَا دَخَلَ لَهُ فِيهِ، كَعِرْفِهِ أَوْ لَوْنِ بَشَرَتِهِ وَلَا أَنْ يَتَوَهَّمُ أَفْضَلِيَّتَهُ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ.

إِخْوَتِي الْكِرَامَ،

كَمَا لَا يُنَاسِبُ التَّمَدُّحُ بِالْعِرْقِ أَوْ لَوْنِ الْبَشَرَةِ الْعَقْلَ السَّلِيمَ، كَذَلِكَ لَا يُنَاسِبُ أَخْلَاقَ وَالِدَيْنِ. فَإِنَّ الْأَفْضَلِيَّةَ لَا تَكُونُ بِالْعِرْقِ، بَلْ لَا مَسَاعَ لَهَا إِلَّا بِالتَّقْوَى. بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ط إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ط إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»¹ يُحْكِي أَنْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ نَزَلَتْ حِينَ حَقَرَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْوْنِ بَشَرَتِهِ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ يُؤَدِّنُ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ.